الصالونات الأدبية

لعبت الصالونات الأدبية دورا هاما فى إشاعة الثقافة العالية، فهى تجمع أناسا من مواطن شتى، ويتدارس روادها أحدث ما صدر من كتب، ويناقشون أخطر الأفكار، ويتبادلون آخر الأنباء، والكلمة لاتينية الأصل، وتعنى المكان الذى يستقبل فيه أهل البيت زوارهم بعامة وإذن فتعريبها بندوة أو منتدى لا يؤدى المراد منها بدقة، لأن محتوى هذين اللفظين قديم، ويعرفه أدبنا العربى منذ أيامه الأولى، فى سمر القبيلة، وتزاحم الناس حول الشعراء فى الأسواق، وفيما بعد فى قصر الخليفة أو الأمير أو الحاكم، ذلك أن المنتديات فى مجملها كانت وقفا على الرجال وحدهم، وأقول فى مجملها لأن صالون ولادة بنت المستكفى فى قرطبة، فى القرن الحادى عشر الميلادى، وصالون حفصة الركونية فى غرناطة فى القرن الثانى عشر، كانا يجمعان الأدباء من الرجال والنساء على السواء.

عرفت فرنسا هذه الصالونات فى القرن السابع عشر، وازدهرت وكثرت فى القرن التالى له، واكتسبت طابعا عالميا بمن كانوا يترددون عليها وبالقضايا التى يتداولها السامرون. وكان يقوم عليها سيدات اتصفن بالألمعية والذكا والثقافة والجمال، والحس الاجتماعى

الرهيف، وتجمع ألوانا من المتع الحسية والفكرية، من أدب ونقد وفكر وثقافة، وموسيقا ورقص وشراب، وبذلك أصبحت سوقا لتبادل الآراء، ومجالا رحيبا للأحاديث المتنوعة، تعرض لكل شيء، وتتناول كل جديد وطريف، من استعراض «مودات» الأزياء إلى الأفلاطونية الحديثة، ومن أدب بترارك الإيطالى ومقلديه حتى مناقشة قواعد الإملاء.

بعض هذه الصالونات لعبت دورا بالغ الأهمية فى إلقاء الأضواء الكاشفة على الآداب الأجنبية، ودفع الأدباء الوطنيين المغمورين إلى عالم الشهرة والخلود، وإذا كان يقال اليوم إنّ شهرة أى فنان أو أديب أو كتاب أو أغنية، فى عالمنا العربى المعاصر، تبدأ من القاهرة، فقد كانت فى باريس القرن السابع عشر تبدأ فى صالون أوتيل دى رامبوييه وهو أقدم صالون عرفته فرنسا، وأوربا بأجمعها.

كانت صاحبة الصالون كاترين دى فيفون، مركيزة رامبوييه، (١٥٨٨ــ ١٦٦٥)، فتاة جميلة، مصقولة التربية، والدتها رومانية، وأبوها فرنسى، عمل سفيرا لوطنه فى العاصمة الإيطالية، وآثرت فى زمن مبكر أن تدع حياة البلاط، وأن تفتح صالونها عام ١٦٠٨ للنبلاء، والطبقة الأرستقراطية، والمثقفين الذين يودون أن يرتفعوا بذكائهم ومواهبهم إلى مستوى هذه الطبقات. وأعدت قاعاته، وزينت حجراته، لتبعث البهجة والمتعة فى نفوس زواره وتتسع لهم، ولتكون معبدا لمجتمع الصفوة الراقية بأكملها.

فى هذا الصالون كانت تلتقى صفوة المثقفين والنبلاء، وعلية القوم، يناقشون التيارات الأدبية الحديثة التى تفجرت حول فرنسا، فى إسبانيا أولا، ثم إيطاليا فيما بعد، فعرف رواده اتجاه جونجرة شاعر قرطبة الإسبانى، وأصول الرواية الحديثة، وما سوف يطلق عليه أدب التصنع، أو الحذلقة، أو الأدب المثقف، والذى يعتمد على زخرفة الأسلوب، والإيغال فى التصوير، وبدأ فى إسبانيا، ورحل منها إلى إيطاليا، وانتهى به المطاف إلى ألمانيا وإنجلترا مرورا بفرنسا نفسها.

وكان الكاتب المسرحى **كورناى** (١٦٠٦ــ١٦٨٤) من رواد هذا الصالون، وعلى رواده قرأ أصول مسرحياته، ومسرحيته «السيد»، وهو شخصية أندلسية من أثر هذا الصالون، وفيه ارتجل **بوسيه** (١٦٢٧ ــ ١٧٠٤)، وكان شابا، خطبة امتدت حتى منتصف الليل، وقال عنها **فواتير** أنه لم يسمع بمثلها لا من قبل ولا من بعد، وتردد عليه **مالرب** (١٥٥٥ ــ ١٦٢٨) الشاعر، وظهر أثر القصائد الإيطالية واضحا فى شعره، وبخاصة فى أيام شبابه الأولى قبل أن ينضج، على حين اهتم **فوجيلا** (١٥٨٥ ــ ١٦٥٠) بنقاء اللغة الفرنسية، ومقاومة التسرب الأجنبى إليها، فى الألفاظ أو التراكيب، واستخدم أعضاء المجمع الفرنسى مؤلفاته فى الدفاع عن اللغة هاديا لهم، وعلى حين كان مهتما بالمفردات والنحو، كان الشاعر **شبلان** يبذل أقصى جهده لتثبيت مبادئ الكلاسية فى الأدب. وقالت عنه **جولى** ابنة صاحبة الصالون، أنه «شاعر ملحمى تعس، فاتن الجمال، ومتعب حتى النخاع».

وتعكس أعمال فواتير (١٥٩٨ــ١٦٤٨) التى نشرت فيما بعد روح هذا الصالون بدقة، ورغم أنه من أصل متواضع، ظل على امتداد سنوات طويلة العبقرية التى ترأس الغرفة الزرقاء فى الصالون، وآثر أن يعيش حياته أولا، وأن يظهر مواهبه فى الموضوعات الصغيرة والتافهة، فى مقطعات شعرية يصوغها فى مهارة، ويجعل منها نموذجا، أو فى رسالة غرامية تحمل مشاعره، وتصبح للآخرين مثلا، وبذل جهدا كبيرا كى يكون واضحا، وجهدا أكبر فى اختيار موضوعات تافهة عابثة، ومع ذلك كانت رسائله موضع الإعجاب والتقدير، ومثلا عاليا للأناقة الرفيعة، وقد ذهب النسيان بسخرياته وعبثه وتفاهته، وبقى منه أنه أخضع النثر الفرنسى لكى يتسع للتعبير عن حياة المتع واللذاذة.

وفيما بعد أصبح الروائى الفرنسى بلزاك من رواد الصالون أيضا، ويردون عالمية مصادره واتجاهاته إلى تأثير أجواء الصالون، والحوار الذى كان يجرى بين قاعاته. وكانت مدام لافييت من بين الشخصيات التى تتردد عليه فى أيامه الأخيرة، ولعله ألهمها روايتها «سيدة»، وهى تعبق بأريج أندلسى إسبانى نفّاذ. وشهد الصالون نقاشا حادا بين رواده حول الهجاء الصحيح لكلمة muscadin، ومعناها شاب أنيق، هل تكتب هكذا، أو تكتب على النحو التالى: muscardin، ولم ينته المتحاورون إلى رأى حاسم ودخلت الصورتان المعجم الفرنسى.

وحين بلغت ابنتا صاحبة الصالون، جولى وأنجليك، السن التى تهيىء لهما الاشتراك فى المناقشات انضمتا إلى رواده، وأصبحتا من زهوره، وأبديتا استعدادا أدبيا عاليا ومبكرا، فهما يقرآن مسرحيات كورناى وينقدانها، ويعكفان على دراسة كتاب «مقال فى المنهج» لديكارت، وبلغ إعجابهما بهذا الفيلسوف غايته، وفتنتا بالمقطعات الشعرية التى تتغزل فى الأزهار، وقدمت مجموعة منها تبلغ الستين هدية لجولى، حين بلغت سن الرشد، وأقيم لها احتفال خاص تقدم فيه إلى المجتمع الباريسى آنسة. وفيما بعد افترقت الأختان أدبيا، وكونتا حزبين متنافسين، وقامت بين الفريقين مناقشات أدبية حول الشاعرين فواتير وبنسيراد (١٦١٣ــ ١٦٩١)، أيهما أرق وأجل، وكلمة الحذلقة Précieux التى أطلقت على نوع من الأدب الفرنسى يُعنى بالزخرفة تعود إلى هذا العصر، وترددت كثيرا فى هذا الصالون. وقد امتدت الحياة بصاحبة الصالون، حتى شاهدت مسرحية موليير الساخرة «المتحذلقات الساخرات».

لم تتوقف عادة الصالون الأدبى فى فرنسا، وانتقلت من باريس إلى بقية عواصم الأقاليم، وألقينا الضوء على بعض ما جرى فى أهمها، وكان نموذجا لها ومثلا، وليس هنا مكان أن نأتى على باقيها، ولكن صالونا آخر أخذ شهرة عالمية، ولعب دورا هاما فى الحياة الأدبية، لا يمكن أن نمر به غافلين، وأعنى به صالون هدام كدى ستال فى باريس، أو فى قصر كوبيه على ضفاف بحيرة جنيف حين تكون فى

المنفى، وكانت صاحبته أديبة كبيرة، وناقدة عظيمة، هيأت المناخ لتطوّر عظيم فى النقد والأدب، وقد فتح صالونها فى كوبيه أبوابه على دفعات بين عامى ١٧٩٥ و ١٨١١ لكثير من الأدباء المشهورين الذين ينتسبون إلى عدد من الأمم المختلفة، وكان إبّان هذه السنوات البوتقة التى انصهرت فيها الخلافات القومية الأوربية، وأطل المفكرون من خلاله على آداب الأمم الأخرى.

وخارج فرنسا اشتهر صالون **الدوقة مازرين** فى لندن فى القرن السابع عشر، وقام بنفس الدور الذى قامت به الصالونات الفرنسية، ومثله صالون **ليدى هولاند** فى القرن الذى تلاه. وفى عام ١٧٥٠ أنشأت **مدام نوردان فليشت** أول صالون أدبى فى استوكهولم عاصمة السويد.

بعض ما كان يجرى فى هذه الصالونات نراه اليوم جنونا، ورغم ما أصاب الأدب فى ظلها، بتعظيم أشياء لا أهمية لها، لعبت دورا بالغا فى جعل التقاليد أكثر رقة، والأفكار أشد خصوبة، وعملت على تشجيع الوضوح، ومراعاة الذوق فى التعبير، وفتح الطريق أمام الأدب لكى يتميز اجتماعيا، وعظم تأثير النساء فيه، وأصحن قوة كبرى فى توجيهه، إلى ما هو صالح أو طالح على السواء.

• • •

حين بدأت اليقظة العربية خطاها الأولى فى مصر عرفت القاهرة هذه الصالونات تأثرًا بفرنسا، وإذا كانت هناك قد ازدهرت فى قلاع السادة، وقصور الأميرات، وبين علية القوم، فقد قام فى القاهرة أول صالون نعرفه فى العالم العربى، ولدينا بعض أخباره فى قصر **الأميرة نازلى فاضل**، وبإشرافها، وهى بنت **الأمير مصطفى فاضل**، وكان وليا للعهد حين كان أخوه **إسماعيل** الخديوى، ولكن هذا غيّر نظام ولاية العهد، وجعلها فى أكبر أبنائه، فهاجر مصطفى فاضل إلى الآستانة، وكان محبا للثقافة، ولديه مكتبة كبيرة، استولى عليها الخديو إسماعيل، وجعلها نواة دار الكتب المصرية، وحول قصره فى درب الجماميز إلى قاعة للمحاضرات العلمية، ومالبث أن أصبح مقرا لمدرسة دار العلوم العليا، وكانت **الأميرة نازلى** متزوجة من سفير تركيا فى باريس، ودفعت بها ثقافتها إلى أن تتصل بجماعة تركيا الفتاة، التى اتخذت من العاصمة الفرنسية مقرا لها، وكانت تعارض **السلطان عبد الحميد**، وتطالب بالإصلاحات الدستورية، وحين توفى زوجها جاءت مصر، وشاركت فى النشاط الاجتماعى والثقافى فى تلك الأيام.

كان يتردد على صالون **الأميرة نازلى** كبار المصريين والأوربيين، أناس من ثقافات مختلفة، نعرف منهم **الامام محمد عبده**، والشيخ **عبد الكريم سلمان**، **وسعد زغلول**، **وقاسم أمين**، **ومحمد المويلحى**، **وحسن عبد الرازق**، **وحسن عاصم**، وآخرون ممن لعبوا

دورا هاما فى تطورّ الحياة الاجتماعية والفكرية فى مصر. وكانت الأحاديث فيه تدور غالبا حول القضايا السياسية، ووسائل الإصلاح الاجتماعى والدينى التى تشغل الناس فى ذلك الوقت، وفيه تبلورت أفكار قاسم أمين التى حمّلها كتابيه: «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة» ووجد من زملائه التشجيع، وكانت صاحبة الصالون هى التى اختارت صفية ابنة مصطفى فهمى باشا رئيس الوزراء زوجة لسعد زغلول، وتوسطت له فى ذلك. كما أن الإعداد لإنشاء الجامعة المصرية تم فى هذا الصالون. وبعامة كان الصالون وقفا على الطبقة الأرستقراطية ومن تعلّق بها، لا يبلغه إلاّ الذين ارتفعت بهم حياتهم الاجتماعية إلى مقام ممتاز، ولم تكن الحياة الأدبية الخالصة تشغل أحدا ممن يترددون عليه.

• • •

وفى ذات الوقت تقريبا شهدت حلب فى ديار الشام مولد صالون شبيه، رغم تعنت التقاليد وتخلفها، ورجعية الحكم العثمانى وقساوته، فى دار امرأة تنتمى إلى أسرة شهرت بالأدب والعلم والفضل، هى: مريانا مراش (١٨٤٩ ــ ١٩١٩)، ويصفها قسطاكى الحمصى، وكان من رواد الصالون بأنها «مليحة القد، رقيقة الشمائل، عذبة المنطق، فكهة الأخلاق، طيبة المعشر تميل إلى المزاح، حسنة الجملة، عصبية المزاج».

كانت **مريانا** أول أديبة سورية برزت فى مجالات الأدب والشعر والصحافة فى عصرنا الحديث، ومع أن الحكم العثمانى لم يكن يسمح، حتى عام ١٩٠٨، لأى امرأة بأن تصدر صحيفة أو مجلة، أو تعبر عن مشاعرها وأفكارها عن طريقها، حتى لو كانت نسائية، لأن ذلك، فيما يرى، يخالف الديانة والعادات الاجتماعية الإسلامية، إلاّ أن ماريانا استطاعت أن تحصل على رخصة بنشر ديوانها الأول، وكان صغير الحجم، يضم قصائد فى الغزل والمديح والرثاء، وصدر عام ١٨٩٣م، وربما يتسر حصولها على الرخصة أن من بين قصائده واحدة هنأت بها **السلطان عبد الحميد** عندما تولى الخلافة، وثانية عايدته بها فى أحد أعياد جلوسه على العرش، وهنأت أمه بقصيدة أخرى.

منذ صباها الباكر بدأت **مريانا** تكتب فى مجلة «الجنان» التى كانت تصدر فى **بيروت** عن القضايا الاجتماعية، فكتبت تدعو بنات جنسها إلى الكتابة، وترغبهن فيها، وتنتقد عادات المرأة العربية المعاصرة، وتحضّها على التربية بالعلم، والتحلى بالأدب، وتشكو من انحطاط أساليب الكتاب، وتحثهم على السمو بالمواضيع التى يكتبون فيها، والترقى بأساليبهم، ونشرت مقالاتها أيضا على صفحات «لسان الحال» فى بيروت، و«المقتطف» قبل أن تترك بيروت وتلوذ بالقاهرة، وبعدها فى مجلات أخرى، ورغم أنها لم تكن فى البدء، ولزمن، توقع المقالات التى تكتبها، لأنه لم يكن مسموحا للمرأة أن تعبّر عن مشاعرها، أو حتى عن أفكار إنسانية عامة، فقد وجدت

مقالاتها صدى طيبا بين نساء عصرها، وأحيانا كانت تنشر ما تكتب على أنه «ترجمات من بعض الصحف الأجنبية»، رغم أنه من إبداعها وبقلمها.

كانت **هريانا** تجمع بين الثقافتين العربية والفرنسية، كثيرة السفر إلى أوربا، تقف عند معالمها الحضارية، وترقب سير الثقافة والفكر فيها، وتتأمل أسباب نهضتها، ومن المرجح أنها قرأت، وربما عرفت أيضا، شيئا عن الصالونات الأدبية فى باريس، ما شغل منها القرن الثامن عشر، أو كان قائما على أيامها، مما دفعها إلى أنْ تقيم فى بيتها صالونا، على غير سبق فى بلدها، رغم تخلّف العادات، وفساد الحكم العثمانى ورجعيته.

وقد أصبح صالون **هريانا** فى **حلب**، مثابة الفضلاء، وملتقى الظرفاء والنبهاء، وعشاق الأدب، ويتردد عليه **قسطاكى الحمصى**، **وجبرائيل الدلال**، **وكامل الغزى**، ومن أسرتها **فرنسيس مراش**، **وعبد الله مراش**، وكان هذا الأخير يدبّج المقالات السياسية الداعية إلى الحرية، فى جريدة «مرآة الأحوال» التى تصدر فى **لندن** عام ١٨٧٦م، وآخرون من الشخصيات الأدبية حلبية وشامية وأجنبية، يلتقون على موعد، يتناشدون الأشعار، ويتناقشون فى الأدب، وتضفى صاحبة الصالون على الجمع جوا من الألفة والمودة والرعاية وحسن اللقاء، وتشارك فى الحوار، وتدلى برأيها فيما يعرض من قضايا، وتطربهم من حين لآخر حين تعزف لهم على البيانو أنغاما جميلة.

ولكن الحياة فى ظل الحكم العثمانى كانت أسوأ من أن تحتمل هذا التقدم والرقى، فضيّقت على رجال الفكر والأدب، ورأت فى تجمعهم تحت أية راية خطرا على نظام الحكم، وعصفت بهم وقست عليهم، واضطرتهم واحدا وراء آخر إلى مفارقة ديارهم، ذهب بعضهم إلى أوربا، وهبطت الأغلبية مصر، واتخذت منها وطنا، ووجدت فيها ترحيبا، وحرية فكر، فأصدروا ما يريدون من صحف، وكتبوا ما يودون من آراء، ونشروا ما عندهم من إبداع، وأقفر صالون مريانا من رواده، وإنْ ظلت هى تراسل الصحف والمجلات الأدبية فى القاهرة وبيروت.

• • •

على أن أشهر الصالونات العربية وأحفلها بالشخصيات التى تتردد عليه، صالون الأديبة هى زيادة (١٨٨٦ — ١٩٤١)، أبوها إلياس زيادة من لبنان وأمها من فلسطين، وبرعت فى مجال الأدب مبكرا، وأخذت بحظ وفير من الثقافة، فكانت تجيد الفرنسية والإنجليزية والألمانية، وتترجم منها فى سهولة، وكان ديوانها الشعرى الأول «أزاهير حلم Fleures des Reve» باللغة الفرنسية، وإلى جانب ذلك تعرف الإيطالية، وتلم بالإسبانية واللاتينية والسريانية واليونانية، وتكتب فى العربية بأسلوب شاعرى أخاذ.

نزحت هى إلى القاهرة مع والدها حين جاء مصر عام ١٩١١ بحثا عن الحرية والتسامح، وهربا من التخلف والاستبداد السائدين فى

فلسطين ولبنان والشام، وكان ميسور الحال فامتلك أرضا زراعية، وحقق رغبته الصحفية فاشترى جريدة المحروسة، واتفقت هجرة مى مع اكتمال أنوثتها فأصبحت ناضجة آسرة، ذات دلال يزيدها فتنة، ولو أن الهجرة نفسها تركت فى أعماقها آثارا بعيدة المدى لم تندمل مع الزمن، فكتبت إلى العقاد إثر رحلة إلى لبنان رسالة ضمنتها مقتطفات من مقالة نشرتها بعد عودتها، بعنوان: «أين وطنى؟» تقول فيها: «... ولدت فى بلد، وأبى من بلد، وأمى من بلد، وسكنى فى بلد، وأشباح نفسى تنتقل من بلد إلى بلد، فلأى هذه البلدان أنتمى؟.. وعن أى هذه البلدان أدافع؟.. يمضى الموتى تاركين للأحداث وراثات حسية ومعنوية ينعمون بها، وشرفا قوميا يعززونه، وتقاليد يحافظون عليها. أما أنا فلم يبق لى من آثار موتاى سوى الأثقال المعلقة فى يدى وعنقى!. فلماذا قُدّر علىّ أن أكون ابنة وطن تنقضة شروط الوطنية، فأمسى تلك التى لا وطن لها!».

كانت ضائعة، لأن القومية العربية لم تكن قد اتضحت معالمها كاملة بعد فتنتمى إليها، ولم تكن مسلمة فتشعر بانضوائها تحت راية الجامعة الإسلامية، ولا مفكرة فيلسوفة تخترق حجب الغيب، وتبشر بوحدة قادمة، وتسهم فى بنائها، وكانت على أيامها وهما، وهى أمل على أيامنا، ونرجو أن يعيشها أحفادنا واقعا.

وصف سلامة موسى الأنسة مىّ وصفا حسيا فى حديث أجراه معها، ونشره فى عدد أغسطس عام ١٩١٤ من مجلة المستقبل، فقال

عنها: إنها «رَبْعَة، مستديرة الوجه، زجّاء الحاجبين، وطفاء الأهداب، دعجاء العينين، يتألق الذكاء فى بريقهما، ويجلل وجهها الجميل شعر جثل أسحم، وتلعب على شفتيها ابتسامة الخفر، وهى أبعد النساء عن الاسترجال وأشدهن أنوثة».

فى جريدة والدها «المحروسة» بدأت نشاطها الأدبى، فأخذت تكتب بابا ثابتا تحت عنوان: «يوميات فتاة»، وكانت غاية مقالاتها فكراً إصلاح المجتمع ورقىّ الأمة، واتصفت أسلوبا بتخير الألفاظ ذات الجرس الموسيقى، ولو أنها تكيف أسلوبها حسب ما تقتضيه الغاية، ومحاولة التأثير فى القارئ عن طريق العاطفة، فيجئ شجيًّا ناعما فى مواقف الحزن والحب، هامسا عاتبا رقيقا فى الدعوة إلى الإصلاح والتنبيه إلى نقص، متهكما قارصا عند التعرض للعوائد الاجتماعية المتخلفة، رشيقا فى مجال العرض القصصى، ينضح عاطفة متأججة فى المواقف الحماسية، وينعكس فى كل ذلك ثقافتها الأجنبية الواسعة، وما كان منها رومانسيا بخاصة، فقد تعلقت بقراءة **لامارتين، ودى موسيه، وشاتوبريان وجورج صاند** من الفرنسيين، **وبايرون وكيتس وشيللى** من الانجليز، وترجمت عن الألمانية رواية «غرام ألمانى» من تأليف **مكس هولر** بعنوان: «ابتسامات ودموع».

فقدت **مىّ** والدها عام ١٩١٩، وكانت صدمتها شديدة فيه، إذ كانت تعتمد عليه فى مواجهة المجتمع، واقتحام دروبه، ولكنها بمآزرة السوريين الذين فى مصر، وكانوا يتعاضدون فيما بينهم، تولت تحرير

الجريدة، وأمدتها جريدة الأهرام بالعون، بل إنّها قدمت لها عام ١٩٢١ مكانا مناسبا فى الطابق العلوى من إحدى عمارات مبناها القديم فى شارع مظلوم، وبدأت فى الوقت نفسه تكتب فى جريدة الأهرام، ولمجلة الزهور لصاحبيها **أمين تقى الدين وأنطون الجميل**، وكان **داود بركات** رئيس تحرير الأهرام إذ ذاك متيما بمى على تقدم سنه، وهو الذى غيّر اسمها من **هارية** إلى **مىّ** وأردفه بلقب النابغة، وقيل أن الغرض من تقديم المكان لها كان تجاريا بحتا، القصد منه كسبها كاتبة، ونقل اهتمامها إلى جريدة الأهرام ومجلة الزهور. وقد انتهى الأمر بالمحروسة إلى التوقف عن الصدور، ومع الزمن لم تقصر مىّ جهدها على الأهرام والزهور فأخذت تكتب فى «المقتطف» و«الهلال»، وأشرفت على الصفحة النسائية فى «السياسة الأسبوعية»، وأسهمت فى تحرير مجلات مصرية وعربية أخرى.

بدأ صالون مىّ عام ١٩١١، فى مسكنها فى شارع عدلى، فى المكان الذى تشغله محطة البنزين الآن، وكان يحمل اسم شارع المغربى، ثم انتقل عام ١٩٢٢ إلى الطابق الذى قدمته لها جريدة الأهرام، واستمر حتى نهاية الثلاثينيات، واعتادت مىّ أن تستقبل فيه كل يوم ثلاثاء نخبة من الباشوات الكبار، أو الأدباء الأثرياء، أو من الأدباء المعدمين، تمتلئ بهم حجرات الدار، وتساعدها أمها فى الترحيب بالضيوف، تجلس فى صدر الصالون، وحواليها حشد فيه: اسماعيل صبرى باشا، ومنصور فهمى باشا، وولى الدين يكن،

ولطفى السيد باشا، وشيخ العروبة أحمد زكى باشا، ورشيد رضا صاحب مجلة المنار، وابن أخيه محيى الدين رضا، والشيخ على عبد الرزاق، ومصطفى عبد الرازق باشا، وأنطون الجميل باشا، وخليل مطران بك، وحافظ إبراهيم بك، والأمير مصطفى الشهابى، والفريق أمين المعلوف، والدكتور يعقوب صروف، والدكتور شبلى شميل، وسلامة موسى، وعباس محمود العقاد، ومصطفى صادق الرافعى، وإسماعيل مظهر، وإيمى خير، ومحمد حسين المرصفى، والخطاط نجيب هواويني، وأحيانا عبد العزيز باشا فهمى، وأحمد شوقى، وإبراهيم المازنى، وآخرون.

كان المترددون على الصالون يمثلون تشكيلة متنافرة وعجيبة، فى مجالات الفكر والأدب والسياسة، بينهم المؤمن والملحد، والمسلم والمسيحى، والذكى ونصف الذكى، والمرتبط بالماضى، ومن لا يتجه لغير المستقبل، والمجدد والمقلد، وأصحاب الثقافة العربية وحدها، أو الأجنبية وحدها، والجامعون بين ثقافات عديدة، وقد قدم لنا طه حسين صورة لرواده فقال: «... وكان الذين يختلفون إلى هذا الصالون متفاوتين تفاوتا شديدا، فكان منهم المصريون والسوريون والأوربيون على اختلاف شعوبهم، وكان منهم الرجال والنساء، وكانوا يتحدثون فى كل شئ، وبلغات مختلفة، وبالعربية والفرنسية والإنكليزية، وربما استمعوا لقصيدة تنشد، أو مقالة تقرأ، أو قطعة موسيقية تعزف، أو أغنية تنفذ إلى القلوب».

وهم خارج الدار يهاجم بعضهم البعض فى عنف، ويتبادلون أشد التهم، ويستخدمون أقسى الألفاظ، فى الأدب أو السياسة، فإذا اجتازوا عتبة الصالون نسوا خلافاتهم، وأخذوا يتبادلون الرأى فيما يقرأون أو يسمعون، على امتداد العالم العربى وخارجه، ومتى معهم، تشترك فى الحديث وتديره، وكما يقول **عباس العقاد**: «وهبت ملكة الحديث فى طلاوة ورشاقة وجلاء، ووهبت ما هو أدل على القدرة من ملكة الحديث، وهو ملكة التوجيه وادارة الحديث بين مجلس المختلفين فى الرأى والمزاج والثقافة والمقال. فإذا دار الحديث بينهم جعلته متى على سنة المساواة والكرامة، وأفسحت المجال للرأى القائل، وللرأى الذى ينقضه أو يهدمه، وانتظم هذا برفق ومودة ولباقة، ولم يشعر أحد بتوجيه الكلام منها، وكأنها توجّهه من غير موجّه، وتنقله بغير ناقل، وتلك غاية البراعة فى هذا المقام».

وقدم **سلامة موسى** تعليلا جيدا لتفوقها فى الحديث وإدارته على الكتابة، فقد كانت فى الأول أذكى منها فى الثانى، «والسبب أنها شرقية، تخاف فى الكتابة أن تبوح بكل ما تفكر فيه، ولكن هذا الخوف يزول عنها فى الحديث».

استطاعت **هى** أن تفتن أعلام عصرها، رغم أنها عادية الجمال، وكان وراء ذلك ذكاء نادر تتمتع به، واطلاع واسع يفرض احترامها، إلى قدر من اللباقة والأناقة فى اللقاء والترحيب، فلا يجالسها مفكر أو أديب أو شاعر حتى يعجب بها، ويخالها تحبه، فهى تتكلم بسهولة،

ولغة صحيحة، فيؤخذ من يصغى إليها بتلك النغمة الآتية من الأعماق، وقد تنتقل بالحديث من العربية إلى غيرها مما تجيد من اللغات الأجنبية، فضلا عما تعرفه من الفنون الجميلة كالتصوير والموسيقا، فلا يعرف مجالسها الملل ولا السأم.

لكن إعجاب الرواد بها لم يكن واحدا، ولا بمستوى واحد، بعضهم يكتفى بالنظر والإنصات كعبد العزيز فهمى، وبعضهم يتأمل ويسرح كأحمد شوقى، أو يلجأ إلى الغزل المكشوف كولى الدين يكن، أو يكتب الخطابات الغرامية كلطفى السيد وعباس العقاد، وتعوّدت متى على كل هذا، فهى تتجاهل الألفاظ والكلمات والروايات التى تجدها خارجة، كأنها لم تسمع ولم تقرأ، أو كأن الرسالة لم تصل.

كان **مصطفى صادق الرافعى** متيما بمى، مع أنه يقيم فى طنطا، وله زوج وأولاد، ويكبرها بثلاثين عاما، ويبكر فى الحضور كل ثلاثاء على أكمل ما يكون مظهرا وأناقة، وتستقبله متى بما يليق بمكانته كأديب إسلامى وعربى كبير، وشاعر يزاحم شوقى فى إمارة الشعر، وكانت إصابته بالصمم تجعل مشاركته فى الأحاديث محدودة، وربما لهذا السبب أولته متى رعاية خاصة ظنتها حبا، فكتب إليها رسائله التى ضمنها كتابه **أوراق الورد** عام ١٩٢٣م فلما ذهبت صرخته سدى، وأحس بفتورها نحوه، كتب إليها عام ١٩٢٤ رسائله الثانية **رسائل الأحزان**، وفيها بدا أشد هياما من رسائله الأولى، وضمنها فلسفته فى الحب والجمال، وفى العام نفسه أرسل إليها رسائله الأخيرة

من خلال كتابه **السحاب الأحمر**، وتعكس عواطف الغضب والانتقام التى كانت تجتاح داخله.

وكان الشاعر **إسماعيل صبرى** مهذبا مصقولا، ويكبر متى بثلاثين عاما أيضا، ولا يلقاها إلاّ وينحنى على يدها مقبلا، وهام بها حبا، ولم يخف هواه أو غيرته عليها، وصاغ ذلك شعرا، على حين كان **ولى الدين يكن** يحبها «باشتهاء وجسارة»، وربما أحست متى بعواطفه، أو لعلها أشفقت عليه بسبب مرضه وبؤسه. وكان **مصطفى عبد الرازق** يحبها فى عفة وحياء، وكتب إليها مرة من باريس يقول: إنّه على حبه للعاصمة الفرنسية «يتعجل العودة إلى القاهرة.. لأنّ فيها من هو أحب إليه من مدينة الشباب والأمل».

وكان **عباس العقاد** يأمل، فى السنوات الأولى على الأقل، أن يحتل من قلبها مكانا مرموقا، إنْ لم يكن المكان الأول، فحام حول الحمى سنوات، ولكن كبرياء المتنبى فيه حال دون أن يفصح أو يواصل، وكانت متى على الطرف الآخر، يلفها حياء شديد، وفى خلقها احتشام درجت عليه منذ الصبا، ذات فطنة قوية، شديدة الحفاظ على كرامتها رغم شبابها المتوقد، فلم تصرّح بشىء، رغم الرسائل المتبادلة بينهما، وتوقف بها الأمر عند رسائل فيها تلميح وعتب، وإقبال وصدود، ولا شىء أكثر من هذا.

وهناك من كانت علاقتهم بها تعبق بأريج الأبوة، كالذى كان من الدكتور **شبلى شميل**، إذ كان طبيب العائلة وصديقا حميما لها

ولأسرتها ويعاملها كابنة له، وربطتها بسلامة موسى صداقة حميمة، وإعجاب متبادل لم يتجاوز هذا القدر، رغم أنّ فارق السن بينهما لم يكن كبيرا، ولم يكن سلامة موسى قد تزوج بعد.

أين كانت مىّ من هذه القلوب الهائمة؟ من المؤكد أن قلبها كأنثى خفق واضطرب، أمام شخص ما فى لحظة ما، وأنها أحبت وهامت، ولكنها استطاعت أن تكتم هواها فلم يعرف له أحد قراراً حقيقياً. قيل إنها أحبت جبران خليل، ولكن عواطفها ظلت ورقية، نلقاها فى الرسائل المتبادلة بينهما، ولم يتجاوزاها، ومات جبران ولم تعرفه إلاّ صورة. وربما هفا قلبها إلى الجانب الأجل فى كل الذين يترددون عليها، ولم يثبت جملة عند واحد، إذا كانت، فيما يقول سلامة موسى، «تحب عينى الشيخ مصطفى عبد الرازق»، وتؤثر لطفى السيد بشىء من الود، ومثله أنطون الجميّل وخليل مطران.

استمر صالون مىّ قرابة ثلاثين عاما كاملة، وهى أطول فترة عرفها صالون أدبى، فى الشرق أو الغرب، ثم بدأ العمر يتقدم بصاحبته، وأخذت الشيخوخة تزحف عليها، واختطف الموت بعضا من رواده، وانفض الآخرون لأن الصالون كان يفتقر المنهج والغاية، ويتوقف على جمال صاحبته، ورقتها ودلالها، ولم يبق من الأمس إلاّ طيفه، ومن المجد إلاّ رماده، وتحولت حياة صاحبته نفسها إلى خواء، ركبها الهمّ و القلق والرعب، وحاصرتها الأمراض النفسية، وتخلى عنها الجميع، وودّعت الدنيا وحيدة فى مستشفى المعادى، بعد أن أُنزلت

قبله مكرهة مستشفى المجانين فى العصفورية فى بيروت عاما ، ولزمت مستشفى الجامعة الأمريكية فيها عاما آخر، رغم أنها لم تفقد توهجها العقلى حتى الأعوام الأخيرة من حياتها .

وأغلق الموت حقبة من الزمن فى حياتنا الأدبية ، بما لها وما عليها ، وكان تأثيرها فى مجال الإبداع والنقد قويا مثمرا ، فأثرت حياتنا الأدبية فى مجالات الشعر والنثر، والتأليف والصحافة .

وبينما صالون مىّ يغلق أبوابه تعرضت الحياة الاجتماعية فى مصر لدرجات عنيفة ، وتغيّرات عميقة ، فخرجت المرأة إلى مجال العمل فى أعداد كبيرة ، وملأت الفتيات المدارس والجامعات ، ولم تعد المرأة شيئا نادرا يجهد الإنسان وراءه ليراه أو يحاوره ، ولم تعد الأبنية فى معمارها الحديث الضيق ، والمدينة فى امتدادها الواسع المترامى ، تشجع على مثل تلك الصالونات ، فحلّت مكانها المنتديات فى دور الصحف ، وفى المقاهى ، وعرفت القاهرة فى الأربعينات ، والحقبة التى تلتها ، باراللواء وبار الأنجلو قرب مبنى جريدة الأهرام القديمة ، وقهوة الحلمية فى الحلمية الجديدة ، وقهوة القزاز فى باب الخلق ، والفيشاوى فى حى الحسين ، ومقاهى أخرى خلفت ما اندثر منها ، أو انحط مستواها ، وفى الوقت نفسه حاولت بعض المتأدّبات فى مصر وسورية إقامة مثل هذه الصالونات ، ونسين أن الزمن غير الزمن ، وأن الناس غير الناس ، فجاء محاولتهن تقليدا شائها ، يفتقد الأصالة والغاية ، وانتهت كلها إلى لا شىء .

الأندلس فى الأدب الأمريكى

وشنجتن إرفنج

بين أبهاء الحمراء وجنة العريف!

«اعطـه صـدقة ياسـيدتى ....
فـليس فـى الحـياة قـوة تعدل أن يصبح
المرء أعمى فى غرناطة».

ف. ا. دلكاثا

رأى الحياة لأول مرة فى مدينة نيويورك، فى الثالث من شهر أبريل عام ثلاثة وثلاثين وسبع مئة وألف. طفل عليل نحيل، من أب اسكتلندى وأم إنجليزية، اسمه وشنجتن إرفنج، ولم تكن المدينة يومها، كما هى الآن، زاحمة بالسكان، زاخرة بالنواطح، مادية الطابع، آلية الحياة، الدولار فيها أكثر الألهة أتباعا، إنما كانت مجرد مدينة متواضعة لا يزيد أهلوها على ثلاثة وعشرين ألف ساكن، تدعى «أمستردام الجديدة»، اشتراها المعمرون الهولنديون من الهنود الحمر بأربعة وعشرين جنيها، ثم بدأ فقراؤهم يتوافدون عليها واحدا إثر آخر،

obeikandi.com

يقيمون فيها متاجر صغيرة لبيع الأقمشة الزاهية المخططة، وجلود الدببة البيضاء الناصعة، وتلا هؤلاء مهاجرون آخرون، أرسلت بهم شركة «الهند الشرقية الهولاندية» إلى هناك، من طبقة أوفر ثراء وأكثر ثقافة، لرفع مستوى الحياة وتحبيب المهاجرين فى البقاء. وقد نقل هؤلاء الهولنديون فقراء وأغنياء كثيرا من أساطيرهم وتقاليدهم ونماذج حياتهم، فثمة طواحين هواء كسولة، وشوارع ضيقة متعرجة، وبيوت معتمة اللون، عتيقة المعمار، وسكان يعملون فى هدوء، ويتثاءبون حياتهم فى تراخ، فإذا غربت الشمس وجن عليهم الليل، تجمع عجائزهم وشيوخهم على عتبات البيوت، يدخنون ويتأملون، يتحاكون تاريخ أوائلهم، ويتقاضون ذكريات أمسهم، ويتندرون بأساطير أسلافهم، وما فيها من خرافات وغرائب وخيال ومعجزات، وقد ظل هؤلاء الهولنديون يكونون أغلبية السكان حتى مطلع هذا القرن على الرغم من احتلال الإنجليز للمدينة زمنا، ومجىء مهاجرين جدد من جهات أوربية شتيتة، ومن ثم فإن التقاليد الهولندية ظلت سائدة، وفرضت نفسها على تقاليد الأخرين!.

كانت أسرة **وشنجتن** قد هاجرت إلى نيويورك قبل مولده ببضع وعشرين عاما، مع ذخيرة متواضعة من المال، وحصيلة وافرة من البنين، فقد كان أخوته أحد عشر ولدا، ولكى يعيشوا كان عليهم أن يعملوا كثيرا وجميعا، وفى ظروف كهذه ماتستطيع الأسرة أن تقدمه لأولادها من تربية يكون فى الغالب محدودا جدا بالضرورة، لكن الطفل وشنجتن أحس مبكرا برغبة نهمة للقراة، وكانت مؤلفات

تشوسر وسبنسر وإديسون فى مكنته، فاستوعبها على نحو يمكن القول معه أنه حفظها، وكان مغرما بالرحلات وحيدا، يتجول فيما حول المدينة، ويتغذى بحكايات الأمهات وأساطير الجدات، يقبل عليها ويهتم بها أكثر من حرصة على دراسة الحقوق، وكان قد انتسب إلى مدرسة لها.

وعندما بلغ العشرين من عمره كانت حالته الصحية دقيقة وتدعو إلى القلق، فاهتم أخوته بأمره، وأرسلوه إلى جنوب أوربا عام ١٨٠٤ لكى يشفى مما به من علة، فبقى هناك قرابة عامين زار فيهما إيطاليا وهولندا وإنجلترا وفرنسا، حيث درس الفن فى باريس، وقد ذهبت علاته الجسمية بالراحة والعناية وتغيّر الأجواء، وانتصر على ضعفه النفسى وتردده بالسفر والنقلة ولقاء الناس، فلما عاد إلى وطنه عام ١٨٠٦ كان قد استرد عافيته وشفى من دائه، فتابع دراسة الحقوق بعد أن انصرف عنها، لكن الأدب كان يبدو أكثر جاذبية له من القانون، وتعاونت أسباب ثلاثة على إقناعه بأنّه خلق للكتابة وحدها: بدن عليل، وإحساس عميق بالمرارة، وفشله فى حبه، فقد توفيت خطيبته وهى فى ريعان شبابها، ابنة تسعة عشر ربيعا!.

ولكى يرضى رغبته أصدر بالتعاون مع أخيه **جليرمو** وصديقه **جاكوب ك. بولدينج** صحيفة شهرية، غايتها تربية الشبان، وتهذيب الكبار، وإصلاح المدينة، وتتخذ لها سلاحا من الفكاهة المرحة، والسخرية اللاذعة، والمقال الناقد، فالتف حوله جماعة من الشباب

يدينون برأيه ويسلكون منحاه، وفيها بدأ يكتب عن مدينته نيويورك، فلم ينج من سلاطة قلمه أحد، ولم يتهيب الحديث عن أية نقيصة، وصنعها أسطورة فى شكل تاريخ، وأجرى أحداثها على لسان فارس هولندى قديم، اسمه «ديدريش كنكربوكر»، كان موضع احتقار صحف عصره وازدرائها، ومن حقارته كانت تتخذ المثل والشواهد، لكن رفاقه فى الرحلة تعبوا بعد عشرين عددا من الصحيفة، فانفضوا عنه فأوقف إصدارها.

لكنه لم يتوقف عن كتابة «تاريخ نيويورك»، ونشره كتابا كاملا فى مدينة فلادلفيا، فلقى تقديرا وإقبالا، إلاّ أن حريته فى النقد، وبراعته فى تصوير النقائص، أثارت عليه حفيظة شركائه فى الوطن، ممن لا يحبون الحديث عن أمسهم المتواضع، وهفواتهم الإنسانية أمام الآخرين، فلما أعاد طبعه فى إنجلترا رحب به الشاعر الإنجليزى **توماس كامبل** (١٧٧٧ ــ ١٨٤٤)، والقصاص المشهور **والترسكوت** (١٧٧١ ــ ١٨٣٢) وعُدّ واحدا من الكتب الطيبة التى أثرت فى الأدب العالمى، وكانت قوته تتمثل فى سخريته، وروعة الحوار، ودقة تصوير الأحداث، مما يوحى بأنها وقعت فعلا، حتى أن ناشرا ألمانيا كبيرا، يدعى جوبير، ذكرها فى معجمه على أنها تاريخ حقيقى.

لم يكن وشنجتن يعتبر «تاريخ نيويورك» بداية عمل أدبى له، إنما، والتعبير له شخصيا، مجرد لعبة روحية، وقد توقف بعد إصدار كتابه هذا طويلا، أعواما تبلغ التسعة، لم ينتج فيها شيئا، أو أنتج

شيئا قليلا للغاية لا يدخل فى الحسبان، لأنه لم يكن رضىّ المزاج، وكان على خلاف شعورى مع ما حوله ومن حوله فقرر الرحيل إلى أوربا بحثا عن عالم مختلف ورؤى جديدة، وواتته الفرصة حين استقر السلام فى وطنه بانتهاء الحرب الثانية والأخيرة بين الولايات المتحدة وانجلترا، وتوقيع السلام النهائى، منتهياً فرصة مشاكل مالية عرضت لمؤسسة تجارية كان يملكها إخوته، والحاجة إلى حلها فى لندن، فغادر نيويورك وفى ذهنه أن يبقى بعيدا عنها شهورا، لكنّ غيبته استمرت ستة عشر عاما متتالية. ذهب أولا إلى انجلترا وإليها سبقته شهرة فياضة، فرحبت به محافلها الأدبية. زار **كامبل** فى «سيدنهام» وحل ضيفا على الناقد الاسكتلندى **جفرى**، وقضى أياما فى ضيعة **والترسكوت**، وأعجب بلندن، فقد كانت ملء أحلامه طفلا، ويقول عن نفسه: «ولدت وتربيت فى بلد ناشىء، لكنى تكونت، مذ كنت صبيا، فى أدب أمة عريقة، وارتبطت روحى مبكرا مع ذكرياتها التاريخية، ومع الشعراء الذين شاركوا فى هذه الأحداث، وعاشوا فى هذه الأمكنة، ووصفوا عادات أوربا وتقاليدها، وليس ثمة شىء من هذا يمكن أن ينسب إلى وطنى، إلاّ فى حالات نادرة». أعجب فى إنجلترا بالأساطير الجذابة الحلوة، وبالحياة الريفية الوادعة، وبقلاع السادة المحصّنة، وبالفرح والانطلاق يغمران كل الناس فى حفلات الميلاد وأعياده.

وصل إلى لندن فى سن فتيّة، ليس له من العمر غير ستة

وثلاثين عاما، وبلا موارد، فقد أفلس إخوته، وفقد هو ثروته المستثمرة فى مناجم بوليفيا، فلم يبق أمامه غير العمل ليعيش فحمل قلمه وشمر عن ساعده، يؤلف فى إنجلترا، وينشر فى الولايات المتحدة أو لندن أو باريس، وبين عامى ١٧١٩ و ١٨٢٠ نشر كتاب «مسودات» فى نيويورك، واشترت منه دار «ميراى» للنشر فى فرنسا عام ١٨٢٤ كتابه «حكايات رحالة» بمبلغ ألف وخمسمائة جنيه استرلينى، وهو ثمن طيب بالنسبة لعصره ولو أن هذا الكتاب أدنى مؤلفاته، أهمية وفكرة وأسلوبا، وكان مثار نقد عنيف فى العالمين القديم والجديد، ربما لأنه لم يكن استجابة حقة لإلحاح شعورى، بقدر ما كان محاولة لربح مادى.

لكن مفاجأة كانت تنتظره لم تدر بخاطره يوما، ولم يفكر فيها لحظة، ولو لم تعرض له لظل على الرغم من كل ما ألف وكتب أديبا محليا، يهتم به الناطقون فى لغته، وأبناء وطنه، ومؤرخو الحياة العقلية فيه، دون أن يتخطى حدوده الإقليمية إلى آفاق رحيبة، لا تقف دون اجتيازه إليها عوائق اللغة أو الذوق أو الجنس، ففى عام ١٨٢٦ كان ألكسندر هـ. إفريت يفاوض إسبانيا كى تعترف بحكومة بلاده، بعد انتصارها فى الحرب مع إنجلترا، وحصولها على الإستقلال، فلما نجح فى مسعاه، عُيّن أول وزير مفوض للولايات المتحدة فى مدريد، فكتب فى الحال إلى صديقه وشنجتن يحثّه على المجئ إلى إسبانيا ليعمل معه فى السفارة شكلا، وليقوم فى الواقع بترجمة كتاب

«رحلات كولومبس»، التى ألفها الأديب الإسبانى **رامون دى نفريت**. ويجرى طبعها فى مدريد، وكان الدبلوماسى الأمريكى قد سمع ثناء عليها، فأعجب بموضوعها وتاق إلى نقله إلى لغته الوطنية، ونشره فى مسقط رأسه.

وجاء وشنجتن إلى إسبانيا، وفيها وجد جديدا بدأ به ومعه رحلة أخرى.

• • •

جاء وشنجتن إلى إسبانيا عام ١٨٢٦، فوجدها دولة متأخرة، تحكمها أرستقراطية جاهلة، وتسيطر على مصائر الأمور فيها رهبانية متعصبة، ويتغشاها ظلام دامس من كل جوانبها، حتى كره الناس الحياة فهم لا يعملون، فإذا أجبروا هربوا، وإذا عوقبوا خنعوا، ولم تكن هناك عدالة ولا إحساس بها، والإعدام هو الأداة الوحيدة التى تنتظر المخالفين فى الرأى، وكانت السجون مكتظة، والمحاكم آهلة، والمجالس العسكرية تباشر عملها بلا قانون يحقق وجودها، ولا تقاليد تحدد رسالتها، وطبقة مُبغضة من رجال الدين ألفها المطران **أوسبا** أو «ملاك الإبادة» كما كانت العامة تسميه، عمّت كل إسبانيا، ومهمتها ملاحقة الأحرار وإبادتهم، وكانت الجاسوسية تحكم الدولة، يراقبون نظرات الناس وحركاتهم وقراءاتهم وحتى نبضات قلوبهم، والكتب الأجنبية ممنوعة كلية، إلى جانب الكتب الوطنية التى تعالج

موضوعات متحررة، أو تدرس العصر العربى فى موضوعية، أو تنظر إليه بعطف، وأقيمت رقابة صارمة على كل مايطبع من صحف أو كتب، أو يمثل فى المسارح من روايات، وكان رجال الفكر المتحررون شيئا ما إمّا فى السجن أو المنفى، وبدأ رجال الدين يطالبون بعودة محاكم التفتيش رسمياً، وقد أقيمت يوما لاستئصال شأفة المسلمين بعد انتصار المسيحيين، وظلت تباشر عملها منذ أن أقر مجمع «فيرونا» المسكونى عملها عام ١١٨٣ إلى أن أُلغيت فى إسبانيا نهائيا عام ١٨٢٠ (قبل قدوم وشنجتن إلى إسبانيا بسنوات خمس)، ولو أنها ظلت قائمة على الصعيد العملى حتى مطلع القرن العشرين.

كانت الطرق مليئة باللصوص، والمدن مثلا فى القذارة، وبلغ اضطراب الأمن الشخصى والجماعى حدا لم يعد معه أحد آمنا على نفسه أو ماله، وبدأ الناس همسا يترحمون على أيام نضرة، وحضارة خضرة، طابعها الرخاء والتسامح، وعمادها العلم والثقافة، وغايتها السعادة وتكريم الانسان، أضاءت جنبات الجزيرة يوما على أيام العرب المجيدة.

وأيا ما كان الأمر، فقد وجد وشنطن إسبانيا دولة تتكون من دول، قشتالية اللغة، كاثوليكية الدين، لكنها عربية السحنة، إسلامية التقاليد، شرقية التراث، تتناثر الألفاظ العربية، صحيحة أو محرفة، من أفواه فلاحيها وطبقاتها الدنيا، وتملأ أساطير العرب عقول الناس ووجدانهم، وتجرى حكايات ملوكها وترفهم على كل لسان، لم

تكن المدرسة قد انتشرت لتفرض على الأطفال نسيان الألفاظ العربية وإحلال بديل لها من أصل لاتينى، ولم تكن هناك مواصلات ميسرة، ولا صحف منشورة، ولا إذاعات مبثوثة، تعين على تسهيل عملية «المحو» الثقافى، كما حدث فى هذا القرن، بعد أن نجح التعصب فى استئصال التراث المادى، بإخراج المسلمين أو تقديمهم قوافل إلى مقاصل الإعدام، وكان وشنجتن حر الفكر، إنسانى الوجدان، مفتوح القلب، فأورد لنا بعضا من تقاليد العرب الباقية. لا نجدها فى كتاب آخر ينتمى إلى هذا القرن (لاحظ أن ذلك كان فى القرن الماضى، أو على وجه التحديد منذ أكثر من مائة عام)، ولم يقعد به مرض فى النفس أو غل فى القلب عن نسبة الفضل إلى ذويه.

يقول وهو يتحدث عن نظام السفر، فى كتاب «حكايات الحمراء»: «إن مخاطر الطرق حملتهم على السفر فى نظام يشبه إلى حد ما نظام القوافل فى الشرق، فالحمالون يجتمعون فى قوافل، ويسافرون فى أيام معلومة، فى صفوف طويلة كاملة العدة من السلاح، ثم ينضم إليهم المسافرون الذين يزيدونهم عددا إلى عدد، وقوة إلى قوة».

«والمُكارى الإسبانى عنده ذخيرة لاتنفد من الأغانى والقصص الشعرية يسرّى بها عن نفسه فى سفره المتصل، فى نغمة بدائية سهلة، تتكون من مقاطع قليلة، رافعا بها عقيرته فى قوة، مادًّا صوته،

مقطّعا نغماته، على حين قد جلس جانبا من ظهر بغلته، التى تبدو كأنها تنصت إليه، موفّقة بين خطوها والنغم، والمقطوعات التى يغنيها هى فى كثير من الأحيان غراميات متواترة عن عرب إسبانيا، أوشىء من أساطير القديسين، أو بعض من أناشيد الحب، وكثيرا ما يرتجل المكارى أغنية على البديهة يصف فيها مشهدا يقع عليه، أو حادثا من حوادث الرحلة، وله ولع جنونى بالأغانى الشعرية يستمع إليها بين مناظر الوحشة والوحدة، مصحوبة أحيانا بجلجلة أجراس البغال، وهذه القدرة على الغناء والارتجال شىء شائع بين الإسبان، ويقال انها موروثة عن عرب إسبانيا».

موروثة حقا وليس ذلك مجرد استنتاج، ولو محوت كلمة البغل واستبدلت بها الجمل، وحذفت لفظة إسبانى وأحللت مكانها كلمة عربى، لما تصورتها إلاّ قافلة تقطع فيافى الجزيرة العربية فى القرن الخامس الميلادى أو ماتلاه من قرون، بنفس الطابع والحياة والتقاليد، وإذا كان ركض البغال فى إسبانيا أوجد نوعاً معيناً من الشعر الإسبانى، فقد كان وقع الجمل فى الجزيرة العربية مصدر نشأة الشعر العربى بأكمله.

وجد وشنجتن نفسه بإزاء عالم جديد، لم ير له مثيلا فيما زار من أوربا، وقبل أن يحدد طريقه بدأ يتأمل ما حوله ويدقق النظر فيه، يتفهمه ويتمثله ويتجاوب معه، وصنع كل ذلك فى هدوء وعلى

روية، فإنتهى به المطاف إلى شيء آخر، غير ما أراد لنفسه أولا، وغير ما فكر فيه صديقه الوزير.

كانت مهمته الرسمية أن يعمل ملحقا فى سفارة الولايات المتحدة فى مدريد، أما واقعا فكان يراد منه أن يضطلع بترجمة «رحلات كولومبوس»، ولقد بدأ فيها فعلا، لكنه ما كاد يرى الوثائق التى تزدحم بها دور المحفوظات الإسبانية ويقارن بينها وبين ما فى الكتاب، حتى أدرك أن الكتاب ألف تحت رعب محاكم التفتيش المصلّت، وفى جو يفتقد حرية الفكر تماما، فعزف عن الترجمة، وبدأ فى كتابة سيرة الرحالة الإسبانى ــ أو الإيطالى ــ من جديد، فى موضوعية علمية، وعلى نحو أكثر حيادا ودقة. وفى أسلوب أكثر طلاوة ورقة، واقتضته ضرورة البحث أن يزور دور المحفوظات فى الإسكوريال، وأن يرحل إلى إشبيلية «حيث ترقد كل الوثائق الخاصة بحياة كولومبوس وباكتشاف أمريكا، فى دار محفوظات «جزر الهند الغربية».

جاءت رحلته إلى الأندلس ــ ويطلق الاسم الآن على جنوب إسبانيا ويضم مقاطعات إشبيلية وقرطبة وغرناطة ومالقة وجيان والمرية وولبة وقادس ــ فى الربيع، أجمل فصول العام فى شبه الجزيرة، وفى عصر لم تكن القطر البخارية قد اخترعت بعد، وذهب فى رفقة زميل ودليل وسائس كان يحكى لهم عبر الطريق مئات من الحكايات الجميلة عن اللصوص وقطاع الطرق، وفلول العرب اللائذين بقمم الجبال، يثيرون السخط، وينشرون الفوضى، وعن الحروب الماضية

والبطولات الخارقة، وكرامات القديسين. كانوا يقطعون الرحلة فى بطء، يتحسسون روح الأرض التى يعبرونها، ويرتشفون روعة الطبيعة التى تحدق فيهم، ويتوقفون فى القرى والضياع للتخفّف من تعب السير ووعثاء الطريق، يتحدثون إلى كل من يلقون من عابرى السبيل: متسولا يستجدى، أو متبطلا يطلب عملا، أو فلاحا فى الطريق إلى حقله أو عائد منه، أو تاجرا ذاهبا إلى سوق الضيعة، أو نبيلا يمتطى صهوة جواد أصيل، وتحف به حاشية عديدة، فإذا حان وقت الغداء افترشوا الأرض على عباءة أو ملاءة. واستظلوا بأشجار الزيتون، يأكلون سويا ويتقاسمون الزاد عدلا، وشيئا فشيئا بدأت تتكشف له معالم الحضارة العربية، ممثلة فى بقايا القلاع والحصون، والمدن، وهندسة تخطيطها واختيار مواقعها، والزراعة وطرائق غرسها وإروائها، وجمع محاصيلها، وعندما وصل إلى إشبيلية وجد نفسه وسط عالم رائع ثرى بالتاريخ والمجد، وتبدّت له عظمة الحضارة العربية فى الوثائق وفى حياة الناس بصورة لم تتضح له فى أى كتاب قرأه من قبل. عاش بعقله وقلبه وأعصابه مع العرب المطرودين بعد إقامة امتدت ثمانية قرون أو تزيد، وجرى بين يديه عدد من الوثائق التى تتصل بمحاكم التفتيش، أثارت اشمئزاز وحنقه، وعرف العرب فى تراجم مدوناتهم وكتبهم على حقيقتهم، فرسانا نبلاء، لا يذكرهم من جاء بعدهم إلاّ عبْر الأساطير والحكايات، لحظتها قرر أن يكتب سلسلة من الكتب تهدف إلى إجلاء حقيقة هذه الحضارة السامقة، وتعريف مواطنيه بإنجازاتها وأصحابها، وكانت مجهولة لهم تماما.

عرف مثلا أن إشبيلية كان بها على أيام العرب مئة ألف معصرة لاستخراج زيت الزيتون، وأن هذا الرقم الهائل من المصانع، وكان في كورة واحدة، يفوق المعاصر التي توجد في إسبانيا كلها على أيامه، ودرس موقع مسجد إشبيلية الجامع وتاريخه، وأسف من قلبه للتعصب الأحمق الذي أطار صواب رجال الدين الكاثوليك فجعلهم يهدمون واحدا من أعظم مساجد إسبانيا، على الرغم من أنهم حولوه إلى كنيسة غداة إنتصارهم عليها عام ١٢٤٨م بزمن قليل، وكان يطيب له أن يقف طويلا في هجعة الليل، ملفوفا في ضوء القمر، وحيدا إلاّ من نفسه، يتأمل مئذنة المسجد الباقية «الخيرالدا» يغوص إلى ما وراء هيكلها المادي، يتأمل فيها التاريخ والفن وزهوة الانتصار. بلى!... إنّ المئذنة الخالدة بروعة معمارها استطاعت وحيدة، بلا مؤذن ولا داعية ولامصلين، أن تنتصر على طوفان التدمير الزاحف، يمحو كل ما هو عربي، وأن تبقى وتخلد، وتظل حتى أيامنا هذه شاهدا حيا بليغا على حضارة كان أبرز سماتها البناء والتعمير!.

وراعه قصر إشبيلية، وقد بني بعد إجلاء العرب عن المدينة، على أنقاض قصر المعتمد بن عباد، ولو أن مساحته الآن نصف ما كانت عليه أيام الملك العربي، وقد جدده الملوك الإسبان أكثر من مرة بأيدي مهرة من صناع العرب وأشرافهم المطرودين، وآخر تجديد شامل له تم على يد فيليب الرابع عام ١٦٢٤، وتمت عملية التجيد بأيدي مهندسين من العرب أيضا، من البقية المتخلفة من المطرد النهائي لهم،

الذى تم فى عهد سلفه **فيليب الثالث**، وربما استثنوا من قرار الطرد، كبقية أخرى من كبار المهندسين والفنيين، ليقوموا بهذا العمل قصدا. ومن الواضح فى القصر أن هؤلاء الصناع العرب، على الرغم من أنهم أكرهوا هم، أو آباؤهم، على اعتناق الكاثوليكية كانوا استجابة لدوافع نفسية يجملون كل زخارفه بآيات قرآنية وأبيات من الشعر العربى، على التأكيد نقلوها دون إدراك لمعناها أو فهم، وإن كانوا يستطيعون قراءاتها، فقد ظل هؤلاء العرب يكتبون الإسبانية اللغة التى فرضت عليهم فرضا بحروف عربية حتى إلى ما بعد تجديد القصر كأنهم يتحدون المنتصرين، ويسخرون من جهالتهم. وقد عرف **وشنجتن** أن هذا القصر ليس إلاّ تقليدا غير دقيق لقصور الحمراء فى غرناطة، فهاجه الشوق لرؤيتها، وشدّ رحاله إليها، وفيها كانت له جولات وصداقات، ونتاج أدبى به دخل التاريخ من أوسع الأبواب.

• • •

وصل **وشنجتن** إلى غرناطة، وجاب أبهاء الحمراء، وتجول فى جنان العريف، وأخذ يحى البيازين حين تعيش بقايا الأسر العربية، لكنه لم يرد لنفسه أن يكون مجرد سائح أمريكى عابر، يرى الأشياء عجلا، ويعجب بها عرضا، ويتأملها ظاهرا دون أن يتعمق سرها، ورأى أن خير وسيلة يبلغ بها غايته كاملة أن يسكن الحمراء نفسها.

كانت الحمراء حين اتخذ منها سكنا عزيز قوم ذل، «وبقدر ما يكون حظه قطان بيت من الجاه والعز أيام رفاهيته، تكون رقة حال

ساكنية أيام ضعته وهوانه» فبعد بنى الأحمر وملكهم الزاهى، والملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيزابيل ودخولها الظافر، وشارل الخامس واستعلائه الإمبراطورى، تقسمتها المحن وأناخت عليها البلايا، فوُكل أمرها قلعةً حربية إلى حاكم مستقل عن غرناطة، احتفظ فيها بحامية، واتخذ من القصر العربى مقاما، ثم نشب بينه وبين حاكم المدينة خلاف، انتهى به إلى أن يجعل من درة بنى الأحمر مأوى للهاربين من الأحكام، والخارجين على القانون، فتحولت قاعاتها الفسيحة وأبهاؤها الممتدة إلى مأوى للسفلة والمجرمين والمتسكعين والمهربين وأراذل الناس، واللصوص وقطاع الطرق، وكان هؤلاء ينقضون على غرناطة ومن فيها، ثم يلوذون بالحمراء، فيحميهم حاكمها نكاية فى نده حاكم المدينة، وبديهى أن يعبث هؤلاء بكل مقدسات القصر، فأوحشت ردهاته، وأجدبت حديقته، وتهاوت مبانيه، واحتلت قاعاته المذهبة أسر وضيعة، وطيور آبدة من بوم وصقور وخفافيش!.

ثم اتخذه الفرنسيون خلال غزوهم إسبانيا على عهد نابليون، مقرا لحاميتهم، ونزل القائد الفرنسى فى نفس القصر العربى، وأخذتهم به شفقة، فأصلحوا شيئا من أسقفه، وغرسوا جانبا من حدائقه، وأجروا المياه إلى نافوراته، لكنهم وهم غزاة عسكريون هدموا عند رحيلهم أبراج السور الخارجى، وأضعفوا من استحكاماته حتى لا يفيد منها العدو، فلم تعد تقوى بعدهم على شىء، ثم جاء من حاول أن يصلح الأمر، وأن يعيد إلى القلعة شيئا من جلالها.

سكن **وشنجتن** القصر العربى، وخُيّل إليه داخله أنه طوى حاضره، وانتقل بمشاعره إلى أيام أخر، أيام كان للعرب هنا سلطان وصولة، وعجب للأبنية، وكاد يبكيها، كيف طاولت الزمن، واستعصت على المحن، وصبرت على الهزيمة، وقهرت عوادى الفناء! جاب قاعاتها الفسيحة المرصعة بالمرمر، وتأمل بِرَكَها الرحيبة وكانت تغص بالسمك، ومشى فى أبهائها العالية وكانت مسرحا لكثير من قصص العرب الجياشة بالعواطف، الناضحة بالحب، الزاخرة بالخيال، وحاب الحدائق فأحب زهورها وتفيأ ظلالها، واستأنى عند قنواتها العربية القديمة تجلب المياه من الجبال، ولها خرير يشجى، وبريق يأسر، وأدرك أن وراء هذا الفن فى رقته وجلاله ذوقا مرهفا، وحسا نزاعا إلى الطيب من متع الحياة.

استأجر **وشنجتن** حجرته من سيدة عجوز تدعى: **دُنيا أنتونيا مولينا**، أو العمة أنتونيا كما كانوا ينادونها، تأليفا لها وتوقيرا، امرأة قوية ذكية غير مثقفة، وُكل إليها أمر القاعات العربية والحدائق، ترعاها وتسهل أمر زيارتها للراغبين من الغرباء، ثم تعيش على ما يجودون به، وعلى ما يتبقى لها من ثمار الحدائق، بعد أن يحمل الحاكم خير ما فيها من فاكهة وأزهار، ويقيم معها **مانويل** ابن أخ لها، وبنت أخ آخر تدعى **دُلورس**، فتاة جميله، ذات عيون أندلسية سوداء، وديعة ومرحة، تنفق جل وقتها فى تربية ألوان من الدجاج والحمام والقطط، وكان الزائر الأمريكى يستأجر نزله بأثاثه وطعامه، فكانت

دلورس تقوم بترتيب غرفته، وإعداد طعامه، ولم يحتج وشنجتن إلى زمن طويل كى يدرك أن غراما مشبوبا يشد مانويل إلى دُلورس، وأنه فى ارتقاب أن ينهى دراسته فى كلية الطب، ويشترى فتوى البابا بالزواج ــ التعبير حرفيا لواشنجتن نفسه ــ لما بينه وبين ابنة عمه من صلة القرابة، وكان يطيب له أن يتناول طعامه حيث يهوى: فى ردهة عربية، أو إلى جانب نافورة، أو فى ظل شجرة، أو على حرف قناة، أو فى صحبة القمر، فليس أجمل من رفقته فى ليلة صيفية، على تل مرتفع، فى مدينة أندلسية، وأحيانا مع أسرة العمة أنتونيا، يتناولون الطعام سويا فى قاعة عربية قديمة يتخذون منها مطبخا ومائدة، وفى أحد أركانها أقاموا مواقد غير أنيقة، أفسد دخانها لون الجدار، وكاد أن يطمس الزخارف العربية، وفى المساء يتوافد على سيدة البيت عديد من الأصدقاء، السكان الفقراء والخدم وزوجات قدامى الجنود، يجلسون إلى جوارها فى خشوع، ويتسمّعون حديثها فى ضراعة، وينقلون إليها آخر إشاعات المدينة تزلفا وقربى، ومن حين لآخر يطيب لهم أن يسمروا. فيعزف شاب على القيثارة، وترقص الفتيات على النغم، وتردد العجائز أغانى موروثة، ويمضى الجميع فى مباهجهم حتى آخر الليل.

يقول وشنجتن إن أول قصة قرأها فى طفولته الأولى، فى العالم الجديد وراء المحيط، كانت قصة إسبانية عن حرب غرناطة، وأن المدينة عاشت فى أحلامه، وزارها عبر الخيال، وعندما تحقق له

ما كان لديه حلما، «كان من الصعب علىّ أن أصدق أننى أسكن قصر أبى عبد الله حقا، وأطل من شرفاته على غرناطة» ولقد صوّر له الخيال أنه فى الجنة، وأن دلورس القائمة على خدمته، ليست إلاّ واحدة من حورها!.

لكن الحمراء بالنسبة لوشنجتن لم تكن مجرد معمار وبناء وتاريخ، ومصدر إلهام وخيال وأحلام، وإنّما أيضا هؤلاء البسطاء من الناس، الذين تعرّف إليهم واختلط بهم، من رجال ونساء، يعيشون حياة قلقة مثيرة، ولئن أفسدوا أرستقراطية القصور وهدوءها ونظافتها وبهاءها، فقد أكسبوها طابعا شعبيا أضفى عليها مسحة من التاريخ المتحرك. وقد وثّق صلاته بهم، وعرف أخص دخائلهم، وكانوا له مصدرا فياضا لحكايات فاتنة وخيال جموح.

عرف تصورهم للقضايا، ونظرتهم إلى التاريخ، وموقفهم من أمسهم العربى، آراء لم تسجلها كتب على أيامهم، أو بعدها، استعلاءً أو تجاوزا، لأن مايؤمنون به لا يجارى تعصب الكنيسة، ولا يرضى أهواء الحاكمين.

وإلى جانب هؤلاء البسطاء من الناس أو أبناء الحمراء، كما يسمون أنفسهم، عرف أيضا الطبقة العليا فى المدينة، حضر حفلاتهم، وجلس إلى موائدهم، وتردد على قصورهم، وأفاد من مكتباتهم وحضر حفلاتهم الاجتماعية، ولها طابع عربى، وكانوا يؤثرون أن يقيموها فى بيوت عربية، وليس أفضل من الحمراء مكانا. وقد لزم القلعة جلّ

وقته، وقليلا ما كان يهبط إلى المدينة ليزور صديقا، أو يطوف بحى البيازين، متجاورا مع بيوته المتواضعة والوقورة فى الوقت نفسه، ودكاكينه ذات الطابع العربى فى نظامها وطرائق العمل بها، وقد حضر فى حى البيازين حفل زواج لاثنين من غمار الناس، ينحدرون من أصل عربى، ومن خلال صلاته هذه أعطانا وصفا للأسبان الذين لقيهم فى أعلى المجتمع وأدناه على السواء: هناك طبقتان من الناس حياتهم بهجة دائمة، الأغنياء الموسورون والفقراء المعدمون، الأولون لأنه لا شىء ينقصهم، والآخرون لأنه ليس لديهم شىء يعملونه، وليس هناك من يعرف هذا الفن، فمن لا يعملون شيئا ويعيشون على لا شىء، خير من الطبقات الفقيرة فى إسبانيا، فللمناخ النصف ولمزاجهم النصف الآخر: «اضمن للإسبانى ظلاً فى الصيف، وشمساً فى الشتاء، وقليلا من خبز وثوم وزيت وحمص وعباءة وقيثارة، وبعد ذلك فلتجر الدنيا كما تشاء».

• • •

هناك، وسط الهدوء والتاريخ، على أرض الأساطير والأمجاد الضائعة، بدأ يجمع ويكتب الحكايات التى سمعها من أفواه الضائعين من الناس فى ثرثرتهم التافهة، وهم نصف سكارى، أو فى قمة البهجة، وحَوَّلَ هذه المعتقدات الشعبية إلى تاريخ مبسط أعطاه عنوانا حكايات الحمراء، واحد من أحسن الكتب التى أُلفت عن تراث

الأندلس الشعبى، أو إسبانيا الإسلامية بتعبير المحدثين من مؤرخى الإسبان.

الكتاب فى مجموعه سلسلة من الحكايات التى كان يتداولها شفاها بقايا العرب الذين أكرهوا على اعتناق الكاثوليكية ولم تشملهم قوانين الطرد، وتنتمى إلى عصور مختلفة، وتخالطها ذكريات **وشنجتن** الشخصية عن إقامته فى غرناطة والحمراء، وعلى الرغم من أنها كتبت فى عصر رومانسى، وأن كاتبها يتحرك فى خَلْقه الفنى داخل هذا الإطار، مازالت تحتفظ بسحرها وجمالها وقيمتها كأثر شعبى وأدبى، إلى جانب أن وصفه التاريخى للحمراء وحجراتها وسكانها فى تلك الفترة من الزمن يحظى من المؤرخين باهتمام كبير، ولقد أصبحت غرناطة بفضل هذا الكتاب مدينة رومانسية، وجذبت أجواؤها العربية اهتمام كل الوافدين عليها، حتى أن كاتبا أسبانيا هو **ريكاردو فيا ربال** شكا من أن الرحّالة من الأدباء الرومانسيين وقفوا جهدهم كله فى البحث عن الأساطير العربية والرومانسية على الرغم من أنهم أوربيون، وركزوا اهتمامهم كله فى غرناطة العربية، أو على نحو أوضح لم تجذبهم الكنائس وما فيها من بذخ، ولا القصور الإسبانية وما أنفق عليها من مال، وهو أمر علله **وشنجتن** نفسه: «إن الكآبة كانت تشع من المبانى الإسبانية التى أقامها المنتصرون إلى جانب، أو على أنقاض، المبانى العربية، وقد بناها أناس كانت حياتهم دون شك من أعجب أطوار التاريخ وأجلها».

كذلك أعطانا تفصيلات عن الشوائع الهامة عن كنوز العرب، أولئكم الذين طُردوا من بيوتهم يوما، وألقى بهم فى البحر، يكافحون أمواجه الشرسة، ويواجهون أهواله الغادرة، حتى يبلغوا شاطئا للأمان، ولم يكن أىّ منهم يصدق عينيه، طردوا دون أن يسمح لهم بحمل شىء من ثرواتهم، فحاولوا الاحتفاظ بها، أملاً فى عودة، طمروها بطن الأرض أو أودعوها قمم الجبال، وحيثما سرت فى الأندلس تجد لها ذكرا وعنها باحثين.

ولقد عُثر على شىء منها، وذهب أغلبها لأن أصحابه أمعنوا فى إخفائه، ولم يعودوا إليه كما كانوا يؤملون، لا هم ولا أحفادهم من بعدهم، وهى ثروات لفتها مع الزمن أساطير شرقية الطابع: تحرسها تعاويذ وتخفيها طلاسم، ويقوم دونها وحش كاسر أو تنين شرس، وأحيانا عرب مسحورون، جامدون كالتماثيل، لهم سيوف مسلولة وعيون لا تنام!.

بلغ من إعجاب **وشنجتن** بالحضارة التى رآها أنه فكر فى كتابة سلسلة من الأبحاث للدفاع عنها وتوضيح موقف العرب فى إسبانيا، وبدأ ذلك فعلا بدراسة العرب فى موطنهم الأول، فأصدر كتابه **محمد وخلفاؤه** عرض فيه لمولد الإسلام ونشأته وتاريخه حتى عشية فتح إسبانيا، لكنه وهو الرجل الرومانسى الرحّالة، صاحب الخيال المفرط، لم يستطع أن يبلغ فى كتابه هذا ما بلغه فى **حكايات الحمراء**، ومن ثم لم يحقق ما وعد به كاملا، فقد أصدر كتابه

أساطير فتح إسبانيا، تناول فيه كثيرا من الروايات التى صحبت اختفاء لذريق آخر ملوك القوط، ثم فتح غرناطة على يد المسيحيين، ثم توقف جهده عند هذا الحد، فلم يعرض لما بين الفترتين، ولم يكمل دراسته الخاصة بتاريخ العرب والمسلمين.

لقيت حكايات الحمراء شهرة عالمية واسعة، وترجمت إلى أكثر من عشرين لغة، ويباع منها فى العام الواحد عشرات الألوف، فما من قادم على الحمراء، وجائل فى قصور بنى الأحمر، وواقف بأطلالهم، إلاّ ونسخة منها بيمينه، يتخذ منها رفيقا ودليلا.

عندما عاد وشنجتن إلى مدريد، فى الستين من عمره، بعد غيبة دامت خمسة عشر عاما، سفيرا لبلاده فى إسبانيا، كان يقيم فى غرناطة أكثر مما يقيم فى مدريد، وعندما غادرها إلى غير رجعة بكاها بكاء صادقا، وبرّح به الشوق مخلصا، وقال: «لم أر فى حياتى مكانا أحلى من الحمراء، ولا يمكن أن أرى لها فى مكان آخر مثيلا».

• • •

إذا كان وشنجتن قد أخذ بهذه الأساطير ونقلها لنا فى خيال رائق ونسج محكم، فإنها بالنسبة لنا نحن، الذين كنا هناك يوما، وثائق تسد فجوات فى تاريخنا، تعاونت قوى كثيرة على طمسها، وإذا كانت هذه الذخيرة من الوثائق التقطها مؤلف واحد، أمريكى الروح والعقل والمشاعر، فى مكان واحد هو الحمراء، من غمار الناس

اللائذين بقصور بنى الأحمر، فكم من الحكايات المشابهة فى قرى أخرى كثيرة، لم يسجلها أحد، ولم يقدر لها بعد أن تصبح تاريخا مكتوبا !.

إنّ وشنجتن نفسه قد أشار من بعيد إلى شىء مما أتصوره، يقول: «رأيت فلاحى أرباض غرناطة يحكون قصة بنى سراج فى أبيات مروعة على نغمات قيثارة باكية، بينما السامعون يستنزلون اللعنات على أبى عبد الله آخر ملوك بنى الأحمر»، ولم يسجل لنا هذا الشعر الإسبانى الحزين، يبكى فرسانا ويلعن ملكا مهزوما، لأنه كان يرى فى أبى عبد الله رأيا آخر، غير ما يرى التاريخ والأساطير، كان يراه سىء الطالع، نكد الحظ، لعبة فى يد أحداث أقوى منه ومن أىّ إنسان.

أريد أن أقول: إننا فى حاجة إلى طليعة تسافر إلى الأندلس، من المتخصصين فى أدبها وحضارتها، تعيش فى القرى، وتختلط بالعامة، تسمع منهم، وتعى عنهم وتسجل ما يثرثرون، وهى طليعة لن تؤتى ثمارها إلاّ إذا كانت جادة، تؤمن برسالتها، بل تسافر على نفقتها، حباً فى العلم وطلبا له كما كان يقول أسلافنا الطيبون، وسوف تعود لنا بحصيلة وافرة من الأمثال والقصص والحكايات كثير منها لم يسجله الإسبان أنفسهم، لأنه على غير ما تهوى الكنيسة هناك، فما زال للكنيسة بعد سلطانها القاهر ظاهراً أو خفياً، على كل ما ينشر من مطبوعات.

للحق والتاريخ كان الأمر موضع حديث ودراسة مع أستاذنا الجليل **محمد سعيد العريان**، يرحمه الله، ذات يوم فى مدريد من صيف عام ١٩٦١، وكان يطيب له، طيب الله ثراه، أن يستأنى بالأندلس أياما إذا كان فى طريقه إلى عدوة المغرب، وللعدوتين من قلبه وعقله مكان، وسألنى لم قعدت عن هذا الواجب؟، وقلت حييا: أنا مبعوث طالب شهادة، يريدنى القانون أن أتردد على الجامعة، وألتقى بالأستاذ، واختلف إلى المكتبة، وأتقدم ببحث وأنال أجازة، ووقتى ضيق، وراتبى محدود، فأطرق مليا وراقت له الفكرة، ولم يكن يعدل إيمانه بالعروبة والإسلام إلاّ ذكاؤه الخارق، ولماحيته الوضيئة، وشجاعته الملهمة فقال: لنعد لها فى قابل الأيام سويا، أنا وأنت، أكون فى المعاش ألقيت عن كاهلى أثقال الرسميات وتكون فى الجامعة، مدرسا طالب علم، وقلت: إن شاء الله، ومضت أعوام ثلاثة على لقيانا، عدت بعدها إلى القاهرة لأفجع فيه، وفى أمل علمى رجوت الله أن يتحقق، أجل وجدت **محمد سعيد العريان** قد أصبح روحا فى جوار الله، وخبرا يتحدث عنه التاريخ!

وبعد.. إن المجد مازال ينتظر كاتبا يعرف كيف يتحدث عن الأندلس!

مجلة البحث العلمى
الرباط ــ المغرب
١٣٨٨هـ = ١٩٦٨م